فتح الاندلس

(اخذت جامعة بيروت الاميركية تعلّم طلبتها ان يبحثوا في التاريخ كأنهُ علم من العلوم الطبيعية المبنية على الاستقراء فلا يكفي النقل فيهِ بل لا بدَّ من تطبيقهِ على نواميس الاجتماع المؤيدة بالاستقراء كما يظهر من هذه المقالة التي انشأها احد طلبتها من نوابغ الشبيبة الاسلامية السورية . المقتطف)

ان اسبانيا الجميلة التي يطلق عليها العرب اسم الاندلس كانت قبل الفتح منهوكة القوى تتآكلها الاحزاب وتنفخ فيها سموم التفرقة والخذلان فشعبها كان يئن من عسف الارستقراطية وتتألم اقليتهُ من الاضطهاد. اجل كانت هنالك اسباب تضرب بجذورها من وراء صرح المملكة القوطية وان اردنا ان نعرف قوة الامة وجب ان لا نأخذ مقياساً لها ابهتها وولائمها وما تظهرهُ من المظاهر البراقة الخلابة بل يجب ان نبحث هنا وهناك بين افراد الشعب اذ الشعب هو الكتلة التي تتألفُ منهُ قوة الامة وعظمتها . يجب ان نبحث عن سعادة الطبقة الوسطى التي من ابنائها نرى التاجر والصانع والعامل والفلاح وعن اولئك الذين عضهم الفقر بنابهِ فكانوا العبيد كما يدعونهم

وهكذا اسبانيا فقد كان الضعف مستولياً على ارجائها. كمقاطعة رومانية حكمها القياصرة المتأخرون وكانت كالبقية الباقية من المقاطعات الرومانية سيئة الحال. وقد قال عنها المؤرخ Salvien الذي عاش في القرن الخامس للميلاد انهُ لم يبقَ من اسبانيا الخصبة السعيدة غير اسمها (١) . ذلك لان جميع الاقطاعات التي يسمونها لاتيفُندیا Latifundia قد اغتصبها الاغنياء القليلو العدد وجعلوها ملكاً حلالاً لهم يتصرفون بها كما يشاؤون . وكانت الضرائب تجبى من الشعب الوسط فاثقلت كاهلهُ بينما نرى الاغنياء والكهنة ومتشرعي الحكومة وكل من حاز القاباً سامية قد أُعفي منها . وكان هؤلاء يعيشون في قراهم الجميلة القائمة الى جانب الانهر وعلى سفوح التلال مترفين يمضون اوقاتهم في مختلف الالعاب كالقنص وغيرهِ لاهين لهم غير الاكل والنوم والاستحمام وكان بعضهم يجيد القراءة فيلهو بها . في قصورهم

(١) Histoire des Musulmans D'Espange الجزء الثاني صفحة ٤

التي زينت بانواع الرسوم اللطيفة كان العبد يقف في غرف الاكل لكي يخدم اسيادهُ وهم يشربون الخمر الفاخرة ويشنفون آذانهم بانغام الموسيقى ويمتعون انظارهم برؤية الراقصات والراقصين

وحياة كهذه لا بدَّ تريك الفرق الجسيم الذي يفصل الاغنياء عن بقية الشعب الفقير وضعفاء الملاَّك . وكانت العبودية الزراعية "Esclavage Agricole" قد انتشرت في هذه الطبقة انتشاراً هائلاً وهي الحالة الوسطى بين الحرية الحقيقية والعبودية. كان هؤلاء العبيد الزراع اوفر حظاً من بقية العبيد اذ انهُ كان يؤذن لهم بشيء من غلاَّت الارض التي يفلحونها ولهم امتيازات منها التزوج من غير استشارة صاحب الارض وكان ذلك ممنوعاً على بقية العبيد . اما الحكومة فكانت تعيرهم جانباً من التفاتها فيجندون ويدفعون ضريبة الاعناق . وما كان لصاحب الارض ان يحرمهم مما اقطعهم اياهُ ولا هم قادرون ان يبيعوا ما أُعطوهُ الاَّ باذن من مالكهِ

وحقيقة الحال انهم كانوا عبيداً للارض لا للانسان فما كانوا ليباعوا دون الارض التي يعملون عليها ولا كانت الارض تباع دونهم وعلاقتهم بها علاقة لا تُحلّ وهي وراثية يتناولها الابناء من الآباء (٢)

اما العبيد فكانوا اتعس البشر حظّاً يباعون ويشرون كحيوان من الحيوانات او متاعٍ من امتعة البيت . وهم كثيرو العدد نسبةً الى الاحرار فكان الواحد من اصحاب الاقطاعات يملك اربعة آلاف او خمسة آلاف او ثمانية آلاف من هؤلاء البؤساء وكانوا يعاملون بلا شفقة ولا رحمة تلعب السياط بابدانهم وتزهق ارواحهم ظلمات السجون ولذا كانوا يهربون الى الحراج ويقيمون في الاوديه والجبال ثم يسطون على املاك اسيادهم آناً بعد آن ويسلبون السابلة ويقطعون الطرق . تلكم كانت حالة الشعب الاسباني في العصر الروماني الاخير وقد ظلت هذه الشرائع الرومانية سائدة في الحكم الاقطاعي ايام القوط ترهق العبيد والزراع ظلماً حتى عشية الفتح الاسلامي

الى جانب المتألمين من الشعب الاسباني يجب أن نضم اليهود الذين قاسوا من الاضطهاد الشيء الكثير فلا بدع اذا طربوا يوم قدم العرب الى افريقية اذ انهم

(٢) Histoire des Musulmans d'Espagne "Dozy" الجزء الثاني صفحة ٧

كانوا يودون التخلص من الأسياد القوطيين واستبدالهم بالأسياد من العرب. كانوا قبل أن يتسنم الملك ريكارد العرش الأسباني (٥٨٦ ـ ٦٠١) في سعادة وهناء لانهم كانوا مديري دفة المالية في الأندلس لما لهم من الخبرة الواسعة في الاقتصاديات والمامهم بدقائق التجارة واحوالها والبهم كان يرجع حرث الأرض واستدرار خيراتها وغناها (٣) ولكن لم يكد ريكارد يستلم زمام الامور حتى عقد المؤتمرات الفاصية بعديهم وسنت القوانين لاضطهادهم وذلك بدفع التعصب والحسد والطمع فما عاد يؤذن لليهود باقامة شعائرهم الدينية ولا الزواج حسب شريعتهم وتقاليدهم ولا بيع لهم الخمار ولا انتقاء اللحوم والتفريق بينها ولا الشهادة على المسيحيين ولو تزوج رجل من يخالف هذه الاوامر يرجم بالحجارة حتى يموت أو يحرق حياً. وهذه القوانين ما كانت توضع في بدئها موضع التنفيذ تماماً وذلك لما كان يبذله اليهود من الاموال على سبيل الرشوة لأولياء الامور وقد زاد عليها الملك سبوت (٦١٢ ـ ٦٢٠) غيرها من المواد منها عدم الاذن لليهود باقتناء العبيد من المسيحيين ولم يسر بحسب ذلك بحجز نصف املاكه ومقتنياته

ولما كان الزواج شائعاً بين اليهود والمسيحيين من الجنسين فقد صدر قانون في هذا الشأن يقضي بان يربى الابناء المولودون من والدين احدهما مسيحي حسب المعتقد المسيحي. أما من يرتد من اليهود الذين تنصروا فكان يحكم عليهم بالعبودية الدائمة

ولم يكتف الملك سبوت بهذه القوانين بل صمم على اعدام الامة اليهودية في اسبانيا ولذلك امر بان يعتنق اليهود اجمعهم الدين المسيحي والا كان جزاؤهم الطرد من البلاد. فتنصر منهم تسعون الفاً (٤) مسيرين لامخيرين وقد اجبر كثير منهم على الهرب الى فرنسا وافريقية. أما من اصر منهم على اتباع معتقده فعومل بالشدة وقاسى في غياهب السجون عذاباً شديداً

(٣) History of the Jews by H. H. Milman D. D الجزء الثاني صفحة ٢٥١ راجع الفصل الثاني والعشرين من هذا الجزء

(٤) Milman D. D الجزء الثاني صفحة ٢٥٤

"History of the Conquest of Spain" By Henry Coppé الجزء الاول صفحة ٥٠

Histoire des Musulmans d Espagne Dozy الجزء الثاني صفحة ٢٦

وممن وقف معارضاً الملك في احكامهِ العالم ايسيدور الاشبيلي (٥٦٠–٦٣٦) Isidore of Seville ومع ذلك فكانت صرخاتهُ في واد

ولما كان العدد الأكبر من اليهود قد ظلّ على معتقدهِ سراً وان اظهر النصرانية علناً فقد أمر مجمع طليطلة الرابع سنة ٦٣٣ م أن يؤخذ منهم اطفالهم لكي يربوا في الأديرة (٥) . أما مجمع طليطلة السادس (٦٣٨ م) فعاب تساهل المجمع الرابع وقرر أن لا يعتلي ملك عرش اسبانيا الاّ اذا اقسم انهُ يضطهد اليهود ومن لم يفعل ذلك منهم يُخلع (٦) ولذا نرى بعد ذلك مجمع طليطلة الثامن يجبر الملك ان يحافظ على قسمهِ وان ينفذ القوانين المختصة باضطهادهم

وليس من الغريب أن نرى يهود اسبانيا تتآمر مع يهود افريقية لاستعجال العرب الفاتحين الذين امتد سلطانهم على افريقية الشمالية ولذا اتهموا بالجريمة الكبرى وهي انهم حاولوا تسليم البلاد للاعداء واسقاط الملكية وذبح المسيحيين فشدد الملك اجيكا Ejica النكير عليهم وعقد مجمعاً في طليطلة طلب فيهِ عقابهم الشديد وقد أقرّ اليهود يومئذٍ أن بعملهم هذا أرادوا أن يجعلوا اسبانيا يهودية ولذا حكم المجمع عليهم بالعبودية وحرمهم املاكهم ومنع الزواج فيما بينهم فأصبحت اليهودية لا تتزوج الاّ مسيحياً واليهودي لا يتزوج الاّ نصرانية (٧) وشُتتوا في انحاء المملكة أو هربوا أو ساعدوا المسلمين بكل مالديهم من مال وقوة. ومع كل ما لاقوهُ لم يتحولوا عن دينهم بل حافظوا عليهِ وعسكوا بهِ (٨) وكانت نتيجة الاضطهاد أن جعلت منهم قوة من أعظم القوى التي دمرت المملكة القوطية (٩) فان مساعدة اليهود لفئة صغيرة من العرب حملتهم أن يخضعوا امة تتألف من ستة ملايين

---

(٥) Coppé الجزء الاول صفحة ٢٠٥ . Dozy الجزء الثاني صفحة ٢٦ . Milman الجزء الثاني صفحة ٢٥٥

(٦) Milman الجزء الثاني ٣٥٦ . Dozy الجزء الثاني صفحة ٢٧

(٧) Milman الجزء الثاني صفحة ٢٦١ . Dozy الجزء الثاني صفحة ٢٨

(٨) ذلكم لأن الشدة متى تجاوزت حدها جعلت من المضطهدين رجالا

(٩) History of the Moorish Empire in Europe by S. P. Scott الجزء الاول صفحة ٢١٣ — ٢١٢

وكان كل من العرب واليهود يعمل لمصلحتهِ الخاصة فاليهودي قوي عالهِ وقد زادهُ اضطهادهُ المتواصل قوةً وحمل منهُ رحلاً شديد الانتقام يطلب التخلص من الكابوس القوطي واستبدالهُ بحكومة متساهلة تكفل لهُ الراحة والهناء لكي يعلي شأن المعاملة وكسب الاموال. اما العربي فكان يود الغنيمة من الفتح ولذا اتفق الشعبان في الغاية

ولا يغرب عن بالنا ان اليهود بعد الفتح كانوا اما ان عالئوا الأسبان على العرب او العرب على الأسبان وذلك حسب ما تقتضيهِ مصالحهم فلما اضطهدهم العرب لمالهم الوفير رجعوا الى الأسبان خاطبين مودتهم طالبين مساعدتهم وساعدوا القوطس السادس على تسم عرشي قسطاله وليون سنة ١٠٨٥ م (١)

لا شبهة ان لليهود ضلعاً كبيراً في فتح اسبانيا وأن أهمل ذكرهم مؤرخو العرب والأسبان ولابدَّ ان يكون موسى بن نصير قد جعل من اليهود انصاراً واعواناً اذ منهم كان يأخذ التعليمات والأخبار عن اعدائه مع الاحصاءات الكثيرة وذلك عن طريق التجارة وبها توصل العرب الى معرفة حقائق جمة . وكان لهم علاقات كبيرة مع الكونت يوليان حليف العرب في الفتح اذ هو ايضاً طلب مساعدتهم . وقد اظهر اليهود للقائدين موسى ويوليان كرماً حاتمياً لان الصفقة رابحة والتجارة غير خاسرة (١١)

أما اتصال اليهود باسبانيا فيرجع الى عهد سليمان وذلك حينما كانت اسطيلهُ تنتاب من ترشيش حاملة اليها الذهب والفضة والعاج وقد كان بعض تجارهم قد استوطنوا اسبانيا وجعلت جاليتهم تكثر في الأندلس لكثرة من ساد على وطنهم من جيوش الفاتحين فأخذوا يهاجرون الى اسبانيا موجات موجات عن طريق افريقية الشمالية . ولما هدم طيطس القدس (اورشليم) أمَّ قسم كبير منهم تلكم الديار ونظراً لذكائهم ومهارتهم في الصناعة والتجارة فاقوا الشعوب الاسبانية بما جمعوهُ من المال فادّى ذلك الى اضطهادهم وكرههم مع شيء من العوامل الدينية وكان في اسبانيا حزبان يتطاحنان كل منهما يود التسلط والقضاء على الحزب

---

(١٠) Coppé الجزء الاول صفحة ٢٠٨

(١١) Coppé الجزء الاول ٢٠٩

الآخر الأول رئيسهُ ابناء غيطشه Witiza والثاني رئيسه لذريق (رودريك Roderic) لمنصب عرش ابيهم

وذلك انه لما توفي اجيكا الملك القوطي في نوفمبر سنة ٧٠١ تسنم العرش ابنهُ غيطشه الذي كان حاكماً في الشمال الغربي من المملكة . وقد كان من بدء اعمالهِ اعفاؤهُ القوم من بعض الضرائب وبذل المال للرجال والعفو عن المنفيين الذين كانوا قد أُبعدوا بامرٍ من ابيهِ وذلك لكي يستولي على القلوب ويعيش امناً . ولكنهُ بعد ان سار شوطاً جليلاً في ميدان الاصلاح احاط نفسهُ بحاشية مبتذلة ليس لها من الأخلاق السامية ما يردعها عن ارتكاب المنكرات وعلى رأسها الملك نفسهُ

وقد كانت الكنيسة الرومانية ناقمة عليهِ لاعطائهِ الرخصة للكهنة بالزواج واصدار اوامرهِ لليهود المنفيين بالرجوع الى اسبانيا واستمتاعهم بالحقوق الوطنية الأهلية التي كانت للمسيحيين حتى انهُ اعلن ذلك في مؤتمر عقدهُ في طليطلة

ولما اتاهُ رسول البابا طالباً اليه ان لا ينفذ ما اصدرهُ من القرارات ضرب بملاحظاتهِ عرض الحائط وابى ان يلبي طلبهُ وعوّل ان يجعل الكنيسة تابعة لاوامرهِ ولأجل ذلك اصدر قراراً ينص بان يكون للكنيسة « رئيسان » حاميان لها ولذا عين اخاهُ أوباس Oppas مطران اشبيلية مطراناً لطليطلة ايضاً بجانب سندريدو Sinderedo رسول البابا فيها ليكون عوناً عليه ورقيباً (١٢)

وهذه الحال المملوءة من الانحطاط الأخلاقي حملت الشعب على الثورة ومناصبة الملك العداء . لكن الملك كان رقيباً عليهم وقد اخذ عدتهُ لمناجزتهم الحساب فقنك بالامراء والكبراء الذين كان الشعب يعتمد عليهم وهذا ما زاد في سخطهم عليه وكرههم لهُ

ثم امر ان تهدم اسوار المدن الثائرة وان تخلى الحصون من وسائل الدفاع (١٣) ومما زاد في الطين بلة جمعهُ سلاح الأهلين حتى جعلهم ضحايا اعتسافهِ على ان هذا لم يطل فانهُ توفي سنة ٧٠٩ م

وتسلط لذريق اكبر زعماء المعارضين لغيطشه وتغلب على الاندلس ولم يكن

---

(١٢) Coppé الجزء الاول صفحة ١٥٠

(١٣) Coppé جزء اول صفحة ١٥٣

من سلالة الملوك (١٤) الذين اعتلوا عرش اسبانيا بل رحلاً نبيلا محترماً لشجاعته ومواهبه . وضع نعسة على رأس حرب شعبي فرفعه الى العرش بدلاً من وارثيه الشرعيين وكان حزبهُ يتألف من الرومانيين الذين استوطنوا اسبانيا ورجال الكنيسة الكاثوليكية وقد نجح لذريق باستمالة هؤلاء وبعض كبار بلاد غيطشه. الذين نظروا الى المستقبل وما يحيط به من غياهب السياسة المقبلة وهم على الغالب ممن يمثلون الدورين في كل مملكة ويجعلون الأحزاب وسيلة لغاياتهم الشخصية

ثم ان غيطشة كان قد منع الزواج بين الرومان والقوط لكي يجعل حداً واضحاً وفراغاً كبيراً بين القوط الغالبين والرومان المغلوبين (١٥) وهذا ما أدى الى التنافر بين الشعبين بدلاً من تقاربهما واندماجهما بصلات القرابة

ولهذا كان الشعب متهيئاً للثورة فاشتعلت في قرطبة حيث يكثر اشياع لذريق من الرومان ورجال الكنيسة الكاثوليكية وسار الى طليطلة حيث تُوج . وما كاد يعتلي العرش حتى نسي الشعبية وغاص مع حاشيتهِ في بحور اللهو فقضى اوقاتهُ بين الكؤوس والولائم حتى اعتلّ جمعه ولم يعد في جسمه تلكم الروح الحربية المجيدة والحماسة الزائدة التي دفعت القوط من قبل الى اجتناء اكاليل النصر من البلطيك الى البحر المتوسط

ان الضرائب الجسيمة التي كانت تجبى من الشعب لاجل ترف الملك ولهو اصحابهِ لم تكن نتيجتها الاَّ الشقاء والفقر المدقع في الامة . هذا عدا الطاعون الذي كان يرتاد البلاد مرة اثر اخرى من ايام احيكا فيعضهم الجوع بنابهِ . اجل ذلك حسّر القوط قواهم الحربية حتى انهم اصبحوا فريسةً لاي عدو مهاجم

ولما كانت قرطبة مركزاً رئيسيًّا لاشياعهِ الرومان والكاثوليك فقد جعلها عاصمته بدلاً من طليطلة التي كان فيها انصار غيطشه وابناؤهُ . ونزل في القصر الذي يدعوهُ العرب بلاط لذريق

ستأتي البقية انيس زكريا النصولي

(١٤) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب لاحمد المقري الطبعة الازهرية المصرية الجزء الاول صفحة ١١٧ (١٥) ( ) جزء اول صفحة ١٧٥